اسم الدرس : وقفات مع سورة المزمل

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-

بإذن الله -عز وجل- درس اليوم هو وقفات مع سورة من سور جزء تبارك، المرة الماضية تكلمنا عن وقفات في سورة نوح، اليوم بإذن الله -عز وجل- نأخذ سورة أيضًا من جزء تبارك وقفات مع سورة المزمل.

قلنا حينما نقول وقفات مع سورة كذا؛ غالبًا لا نسير فيها بصورة تحليلية كما في بقية السور ولكن وقفات عامة، وإن كنا نشير إلى بعض الكلمات أو الجمل أو الأقوال لكن لا يشترط أن يكون هذا مُضطردًا في كل آية وفي كل كلمة.

سورة المزمل حقيقةً سورة عظيمة من أوائل ما أنزل من القرآن على خلاف بين أهل العلم في ترتيب النزول، لكن الشاهد أنها من أول أربع سور نزلت في القرآن، أي هناك دلالة على أهمية هذه السورة، وإن كان الإنسان يتهيب دائمًا الكلام عن مثل هذه السور ولاسيما سورة المزمل لأن هذه السور تحتاج إلى تطبيق أكثر منها إلى تفسير، هذه السور تحتاج إلى تنفيذ، إلى جهد، إلى قيام لليل قبل أن نتكلم عنها كثيرًا، ولأن الإنسان للأسف مقصر في هذه العبادة فيجد حرجًا في الكلام عن هذه السورة، وكما قلت هذه السورة لا تحتاج إلى كثير كلام ولن يعلم قدر هذه السورة ولا قيمة هذه العبادة إلا من طبَّق هذه العبادة، فمهما تكلمنا عن أهمية قيام الليل وقيمة قيام الليل كل هذا سوف يصبح كلامًا، كمن يحدثك عن طعم فاكهة لم تذقها قط! مهما أوتي من حسن بيان وبديع كلام، ومهما أوتي من فنون البلاغة وألوان الحديث لن يستطيع أن يوصل لك الطعم الحقيقي لهذه الفاكهة ما لم تذقها أنت، وأنه مجرد أكلة واحدة لهذه الفاكهة قد تغنيك عن كثير من الكلام. فهكذا الذي منّ الله -عز وجل- عليه بالقيام الحقيقي، قيام الليل، عايَشَ كتاب الله سبحانه وتعالى ولا سيما في ثلث الليل الأخير، وأطال القيام وأطال القنوت لله سبحانه وتعالى، وأطال الدعاء، وفتح الله -عز وجل- عليه من رحماته في هذه الأوقات المباركة هذا لا يحتاج إلى كثير كلام عن قيام الليل إلا من باب التذكير حتى يستمر على هذه العبادة، فنحاول أن نقف وقفات سريعة مع هذه السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

{يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلًا}[المزمل ١،٢]

بدايةً موقع هذه السورة في ترتيب المصحف:

أشرنا المرة الماضية أن هذه السورة تقع في وسط سور؛ الغالب في هذه السور الجهد الدعوي، الذي يغلب على السور المحيطة بسورة المزمل –سورة نوح وسورة الجن وسورة المدثر– الغالب عليها الجهد الدعوي، تكلمنا في المرة الماضية على جهد نوح –عليه السلام– في الدعوة إلى الله ثم استمرار النبي –صلى الله عليه وسلم– في الدعوة بالقرآن وبالصلاة بالقرآن، فأرسل الله –عز وجل– له الجن، ثم بعد ذلك {قم فأنذر} [المدثر ٢] استمرار في الدعوة، فجاءت هذه السورة كمحطة يحتاج إليها الداعية حتى يستطيع أن يكمل المسير، وإن الناظر إلى بداية سورة المزمل يجد أنها تتكلم عن ليل الداعية، ما ينبغي أن يكون عليه ليل الداعية، وبداية سورة المدثر عن نهار الداعية، وما ينبغي أن يكون عليه نهار الداعية، فنجد أن ليل الداعية جاء ذكره في القرآن قبل نهاره، ليل الداعية جاء الحديث عنه في القرآن قبل الكلام عن نهار الداعية، وكأنه إذا كان ليل الداعية صافيًا يتلقى فيه الوحي يتلقى هذه الحقائق في كتاب الله –عز وجل– يكون نهاره مشرقًا، فنهار الداعية هو انعكاس للمعاني التي يتلقاها بالليل، فالإنسان يتلقى هذه المعاني في قيام الليل فيخرج ليفيض على الناس من هذا النور الذي تلقاه بالليل، ولن يستطيع أن يواجه الصعوبات والعوائق التي تقابل الإنسان في الدعوة –كما في سورة المدثر– وأن هناك عوائق كثيرة لا بد أن يصبر عليها {ولربك فاصبر}[المدثر ٧] وأنه لا بد أن يقدم تضحيات كثيرة {ولا تمنن تستكثر}[المدثر ٦]، كل هذه العقبات تحتاج إلى زاد وهذا موجود في قيام الليل، فجاءت سورة المزمل قبل سورة المدثر –والله أعلى وأعلم– فهذا ليل الداعية جاء ذكره قبل نهار الداعية، فمن كان ليله قائمًا متلقيًا للوحي في قيام الليل متلقيًا لمعاني القرآن يستطيع بفضل من الله –عز وجل– أن ينطلق في الدعوة، بل لا يستطيع أن يكتم قلبه وأن يكتم لسانه وأن يكتم نفسه في الحديث عن الله –سبحانه وتعالى–، تجد الإنسان يريد أن يتحدث، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– أصبح نشيطَ النفس[١]، من يُمَنُّ عليه سواء بصلاة الفجر في جماعة أو بقيام ليل يصبح نشيط النفس، لكن الذي يُحرم من هذه الصلوات

[١] عن جابر ابن عبد الله ما من مسلم ذكر أو أنثى ينام إلا وعليه جرير معقود، فإن توضأ وقام الى الصلاة أصبح نشيطا قد أصاب خيرا، وقد انحلت عقده كلها، وان استيقظ ولم يذكر الله أصبح وعقده عليه وأصبح ثقيلا كسلان، ولم يصب خيرا [الألباني(١٤٢٠هـ)، صحيح الترغيب ٦٤٨ [صحيح].

يصبح خبيث النفس كسلان. ومن نشاط النفس أنها تحب أن تتكلم عن الله –سبحانه وتعالى–، هذا موقع سورة المزمل في ترتيب المصحف.

أيضًا **البداية بهذا النداء** {يا أيها المزمل * قم...}

نجد أن السور الثلاثة الأول من القرآن –على خلاف في إدخال سور القلم معهم، ليكونوا أول أربع سور نزولًا... الجمهور على أن أول سورة اقرأ ثم خلاف –وإن كان بعضهم قال أن أول سورة المدثر لكن رده كثير من أهل العلم وأجابوا على الحديث الذي فيه إشكال– أيًا كان ليس هذا هو الموضوع، فأول أربع سور اقرأ والمدثر والقلم والمزمل على خلاف، فنجد –باستثناء سورة القلم– نجد أن أول ثلاث سور فيها أوامر، اقرأ وقم الليل وقم فأنذر، هذه البداية القوية لا بد أن تكون هي بداية الإنسان السائر في الطريق إلى الله –عز وجل– من أول لحظة، وليس مقدمات طويلة قبل العمل، بمجرد أن تَلَقَّى بدأ التنفيذ مباشرة، اقرأ.. فقرأ القرآن.. فقام بالقرآن.. فنشر القرآن، هكذا الإنسان السائر في الطريق إلى الله لا يحتاج إلى كثير كلام وكثير من المقدمات حتى يطبق ما أمره الله –عز وجل– به.

نجد من البدايات اقرأ... قم الليل... قم فأنذر.. انطلاقات مباشرة وهكذا يزداد الايمان! يتلقى معاني الوحي فينفذ فيزداد الإيمان فيفهم أكثر في كتاب الله –عز وجل– فيتلقى معانٍ أكثر من كتاب الله –عز وجل– فيطبق أكثر، هكذا تستمر الدائرة ويستمر السالك في الطريق إلى الله –عز وجل–. فنجد أن البداية بداية نشيطة بداية قوية، هكذا كما قال بعض أهل العلم "من كانت له بداية محرقة كانت له نهاية مشرقة". هذه البداية القوية، لكن الإشكالية أن تكون البداية في الأساس ضعيفة، فإن بطبيعة الإنسان أنه مع طول السير يصيبه بعض التعب فتخيل عندما تكون البداية في الأساس ضعيفة!

كما قال ربنا –سبحانه وتعالى–: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى}[النجم ٣٤]، {أكدى} أي: بلغ الكُدْية. هذا الحجر الذي جعله يرجع مرة أخرى، الذي يحفر البئر فتقابله صخرة فيترك الحفر ويرجع، هو بدأ بداية ضعيفة، هو أعطى قليلًا منذ البداية، لم يدخل ببداية قوية، فعند أول عائق ترك الطريق وعاد مرة أخرى. فلا بد من أن يكون للإنسان بداية قوية، يعزم عزمة قوية على السير في الطريق إلى الله –سبحانه وتعالى–، هذه البداية يجدها الإنسان عندما مثلًا يقرر أنه يريد أن يصوم أو يريد أن يقوم الليل أو يريد أن يطلب العلم، أي شيء... إذا كان واضعًا في ذهنه أنه هناك اختيار للترك، بمعنى مثلًا سيصوم ويقول لنفسه أنا سأصوم غدًا وإذا تعبت أفطر، أو أنا إن شاء الله سأقوم الليل لكن إذا لم

أستطع سأنام؛ من يضع دائمًا اختيار أنه من الممكن ألا يعمل العمل، فإنه لا يفعل هذا الفعل، بنسبة كبيرة لا يفعل هذا الفعل، لكن من يعزم عزمة أكيدة لا يضع اختيار الترك. لذلك أنا أسأل نفسي "لماذا أنت في رمضان لا يأتي لك هاجس أن تفطر مع طول اليوم في الحر وفي صيام النوافل يأتي لك هذا الهاجس كثيرًا؟" أسأل نفسي لماذا؟ فوجدت أنه من أحد الإجابات أنك في رمضان أنت عازم عزمة أن هذا فرض ولا تضع ذهنيًا اختيار أنك إذا تعبت تفطر، لكن في صيام النوافل أنت تضع هذا الاختيار، فكذلك في قيام الليل، لماذا أحيانًا الإنسان في الفرض يتعامل بقوة وعزيمة لكن مع النوافل يتكاسل؟ هناك اختيارات أنت تضع ذهنيًا اختيار أن تعود، هذا التردد هو الذي يجعل الإنسان لا يستمر.

فنجد أن البداية القرآنية بداية قوية، بداية بأوامر تنفيذية، {أقرأ}[العلق(١)] والبداية فيها حركة، لا بد أن تتحرك {قم}، الذى يريد أن يفقه في هذا الدين أو أن يطبق هذا الدين وهو جالس لن يفهم كثيرًا من هذا الدين بل سيصل إليه الدين ناقصًا، لن يفهم الدين فهمًا صحيحًا، لا بد من حركة. ذكرنا كثيرًا قوله سبحانه وتعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيتًا فأَحْيينَاهُ وجَعَلْنا له نُورًا (يَمْشِي) به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها}[الأنعام ١٢٨] نور القرآن يتحرك.

من أوائل الأوامر التي أُمِر بها النبي صلى الله عليه وسلم أن يقوم؛ {يأيها المدثر * قم فأنذر}[المدثر ١،٢] ليس معناها أنذر قائمًا، إنما {قم}: أي على الإنسان أن يترك الحالة التي كان عليها. وهنا توجد إشارة سنتكلم عنها لاحقًا في مسألة المزمل والمدثر.

الحالة التي أنت عليها لا بد أن تتركها وتنتقل إلى حالة أخرى، حالة التزمل وحالة التدثر لابد من تركها والانتقال إلى حالة أخرى من النشاط، حالة أخرى من البذل والتضحية، هذه الحالة التي يُطلب منك أن تنتقل إليها تنافي الحالة التي أنت عليها. إذًا لا بد على الإنسان أن يتعود على الانتقال، وهذه باختصار هي فكرة الالتزام بعيدًا عن الخلاف الدائر حول صحة استعمال هذا المصطلح... أيًّا كان الالتزام، عندما نقول أن شخصًا ما التزم أو تغيّر أو ترك طريق الضلال فالقضية الأساسية أنه قد حصل له تغيير في التفكير وتغيير في التطبيق... تغيير في التفكير أي أن نظرته للحياة تغيرت؛ أصبح هناك جزء هام في حياته، قضية الدين صارت قضية محورية. لم يكن يفكر في الدين، كانت حياته قبل الالتزام أو قبل السير في الطريق إلى الله مجرد تفكير في حياته ودنيته وفي رحلاته وفُسحِه فقط لا غير. الدين كان أمرًا عابرًا، مثل صيام رمضان، أو ممكن لو كان قد أكرمه الله وذهب مع عائلته في عمرة بدل أن يذهبوا إلى مصيف

هذه السنة؛ فالدين كان لحظات عابرة فقط. لكن عندما يلتزم يصبح الدين جزءً هامًا وكبيرًا بل ومحوري في الحياة، وعلى أساس هذا الدين يختار الزوجة والعمل والمسكن والحياة والطريق، أي أن اختياراته الحياتية تُبنى على الدين، وهذا هو الملتزم الحقيقي؛ عندما يضيف التطبيق العملي يحصل له نقلة نوعية. يعني {يأيها المزمل}[المزمل١] اترك هذه الحالة وقم الليل، يا أيها المدثر اترك هذه الحالة وقم فأنذر.

فكأن المطلوب منه صلى الله عليه وسلم أن يترك هذه الحالة وينتقل إلى حالة أخرى. إذًا القرآن يطلب منك أن تنتقل، أن تسير في أحوال أخرى غير التي أنت الآن فيها، أن تنتقل إلى طور أعلى بتطبيقك لأوامر القرآن. تغيرت وأصبح في حياتك نوافل، دعوة إلى الله عز وجل، طلب علم.. إنما لا يصح من إنسان سائر في الطريق إلى الله أن يقول لك مثلًا: مَرّ على التزامي ثلاث أو خمس أو عشر سنين... تسأله ما الذي تغير فيك؟ أنا لا أقصد التغيير الشكلي أنا أسألك ما الذي حدث في حياتك من تغييرات؟ هل تغيرت عبادتك؟ هل تغيرت في العلم؟ في الدعوة؟ في البذل والتضحية؟ في المفاهيم؟ فيم تغيرت تغيرًا حقيقيًا؟ هذا هو المطلوب منك في القرآن.

ويأتي لفظ النداء بالحالة التي كان عليها النبي صلى الله عليه وسلم. بعض أهل العلم قال: لماذا قال له {يأيها المزمل}؟ ولماذا قال: {يأيها المدثر}[المدثر ١] ولم يقل: يأيها النبي، أو يأيها الرسول؟

بعضهم قال أن هذا نوع من الملاطفة. مثل ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم عندما غضب علي ابن أبي طالب رضي الله عنه من زوجته فاطمة وهي ابنة النبي صلى عليه وسلم، فترك علي البيت وذهب لينام في المسجد فغطى التراب ظهر سيدنا علي رضي الله عنه؛ فذهب النبي صلى الله عليه وسلم لسيدنا علي يبحث عنه حتى وجده في المسجد، ولما رأى التراب قد غطّاه قال له: (قم أبا تراب) [٢] ناداه بالحالة التي كان عليها، وهذا نوع من الملاطفة، قال له: (قم أبا تراب). فقيل إن هذا نوع من الملاطفة ولا سيما النداء في أول الوحي، مثلما قال الله عز وجل لموسى عليه السلام: {وما تلك بيمينك يا موسى}[طه ١٧]، حتى لا يهوله الأمر في بداية الوحي؛ فقالوا هذا نوع من تسلية الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم. وقال بعض أهل العلم: لا؛ المطلوب هنا أن يترك الحالة التي هو عليها لأن المطلوب منه يتنافى مع التزمّل والتدثر.

[٢] البخاري (٢٥٦هـ)، صحيح البخاري ٤٤١. [صحيح]

ما هو التزمل وما هو التدثر؟

المطلوب في سورة المزمل قيام الليل والمطلوب في سورة المدثر الدعوة... حسنًا نريد أن نعرف ما هو الفرق بين المدثر والمزمل؟ أو ما معنى كلمة المزمل وما معنى كلمة المدثر؟ حقيقةً إن كثيرًا من أهل العلم أو طائفة من أهل العلم قال أنهما بمعنى واحد، وأن كلا اللفظتين فيهما معنى التلفف بالثياب؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الروايات قال (زملوني، دثروني)[٣] وفي بعض الروايات (زملوني زملوني)[٤] وبعض الروايات (دثروني، دثروني)[٥] فقالوا أنهما بمعنى واحد هو التلفف بالثياب وأنها حالة النائم الملتف بثيابه في النوم.

ركزوا معي قليلًا، درس اليوم فيه **ملاحظتان لغويتان** فقط والباقي كله إن شاء الله بسيط.

ـ من يقول أن المزمل والمدثر بمعنى واحد فهو يرجع إلى قاعدة سابقة في اللغة يُقرّ بها ابتداءً، وهي أن هناك في اللغة شيء اسمه المترادفات، ويقرّ أن هناك ترادف في اللغة. وهذه مسألة خلافية بين أهل اللغة، هل يوجد ترادف؟ بمعنى هل يوجد في اللغة كلمتان لهما نفس المعنى تمامًا ليس بينهما أي فارق مطلقًا؟ هناك من يقول نعم توجد كلمات في اللغة بنفس المعنى تمامًا "الترادف".

ـ بعضهم قال: لا، الترادف لم يقع في اللغة، وإن وقع في اللغة فإنه لم يقع في القرآن مطلقًا، حتى لو شابهت...

مثلًا لا ريب معناها لا شك لكن هناك فارق بين الريب والشك. وقالوا إن الكلمات التي تتقارب في المعاني بينها فوارق، كل كلمة لها الشخصية المستقلة التي تملكها. طبعا أنا أميل لمسألة عدم وقوع الترادف.

ومن المتأخرين هناك كتاب اسمه "الفروق اللغوية" حاول أن يجمع آراء العلماء. توجد كتب كثيرة كُتبت في القديم مثل الفروق اللغوية لأبي الهلال العسكري ومن المتأخرين كثيرة أيضًا ومنها كتاب ((دقائق الفروق اللغوية في القرآن الكريم)) لمحمد خضر إلياس طبعة الكتب العلمية. هناك أكثر من كاتب حاول

[٣] الشوكاني (١٢٥٥هـ)، فتح القدير ٤٤٨/٥ . [ثابت]
[٤] البخاري (٢٥٦هـ)، صحيح البخاري ٣٢٣٨. [صحيح]
[٥] ابن حبان (٣٥٤هـ)، صحيح ابن حبان ٣٥. أخرجه في صحيحه

جمع كل الكلمات التي جاءت في القرآن وبينها تقارب فيبحث عن الفوارق بينها، كالفارق بين المطر والغيث وغيرها.

حقيقةً بحثت كثيرًا عن الفارق بين المدثر والمزمل ولم أجد من أفرد لها بحثًا وأغلب من أشار أن هناك فرقًا لم يعطي البحث قدره، أو قال أنهما بنفس المعنى. فنحن نحاول أن نرجع إلى الأصل اللغوي للكلمتين.

كتاب "مقاييس اللغة" لابن فارس، قيمة هذا الكتاب الأساسية أنه يجمع لك كل الكلمات التي من جذر واحد ويقول لك أصل هذا الجذر له معنى واحد. مثلما ناقشنا سابقًا مسألة "النهار، ولا تنهرهما، والنهر" أصلها النون والهاء والراء، النهار والنهر ولا تنهر، فيبحث عن الأصل لهذه الكلمات. أحيانًا كتاب المفردات الأصفهاني يقوم بنفس هذا الدور.

- التزمل: فقال إن الأصل المحوري الذي تدور حوله الزاي والميم واللام هو الحمل وهناك معنى آخر فرعي، لكن الأصل هو الحمل. والزامِلة هي الدابة التي تحمل، والإنسان الذي يتحمل أحمالًا ثقيلة هو المتزمِّل. والزُّمَّيْل هو الشخص الذي تحمَّل أحمالًا فأصبح ضعيفًا لا يستطيع أن يتحمل أكثر فتلفف وتزمّل بثيابه لأنه متعب، شخص ينام من ثقل الأحمال التي عليه. قيل إن هذه الأحمال قد تكون أحمالًا مادية كالدابة التي تحمل أو أحمالًا معنوية. تجد شخصًا نائمًا تقول له لم النوم؟ يقول لك أنا متعب أحمل على ظهري أحمالًا ثقيلة.. فمن هذا الحمل الثقيل ذهب وتزمل بثيابه وبالغطاء ونام، لماذا نام؟ السبب الرئيسي هو الحمل الزائد.
- التدثر: قيل إن الأصل فيه الطبقات المتتالية فوق بعضها، تعاضد أشياء وتراصُّها فوق بعضها هذا هو أصل الدثار. ومن أمثلة ذلك: الأرض التي تغطيها طبقات من التراب فوق بعضها إلى أن يعلوها التراب فتُمحى الآثار يقال أن في هذه الأرض دثار أو دُثِرت الأرض مثل دُرِست، دروس الشيء يعني اختفاء الأثر. والسيف الذي يتراكم عليه الصدأ حتى لا يصلح للمبارزة يقال سيف داثر. والذين يراكمون الأموال على بعضها هم أهل الدثور، لما ذهب الفقراء للنبي صلى الله عليه وسلم وقالوا يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور لأن معهم أموالًا كثيرة. والنبي صلى الله عليه وسلم قال: (الأنصار شعار والناس دثار)[٦] الدثار هو اللبس الخارجي، والشعار هو اللبس الملامس للشعر أو الملامس للجسد، يريد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم أنهم أقرب الناس إليه وذلك لما ظن الأنصار أن النبي صلى الله عليه وسلم آثر قريشًا وأنه

[٦] شعيب الأرنؤوط(١٤٣٨هـ) تخريج زاد المعاد ٤١٦/٣ .[اسناده صحيح]

سيعود إلى قومه في مكة؛ فقال لهم: (الأنصار شعار) أي أقرب الناس إليّ هم الأنصار وباقي الناس دثار. وكان غالبًا لا يلبس عدة ملابس، والذين يرتدون أكثر من طبقة ملابس هم الأغنياء في عهد النبي صلى الله عليه وسلم؛ كان بعض الصحابة يصلي في الثوب الواحد لفقره لأنه لا يملك غيره.

فقالوا الدثار يحمل معنى الاسترخاء، معنى الدفء، معنى الغنى، الرفاهية؛ لأنه معه أموال كثيرة أو يرتدي أكثر من طبقة، أنت ممكن تجد شخصًا فقيرًا في الشتاء يرتدي طبقة واحدة؛ لماذا؟ لأنه فقير، إنما تجد إنسانًا يهتم أن يرتدي كذا ثم كذا ثم كذا ثم كذا، هذه علامة على الرفاهية، علامة على الغنى، حالة استرخاء، حالة دفء.

فإذًا نأتي للمتزمل الذي في حالة ضعف من الأحمال وتعب، فذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- ونام فربنا قال له: إن حل هذا التعب هو أن تقوم الليل، هذه الأحمال التي تحملها على نفسك، هذه الأعباء التي جعلتك تنام، الحل لها أن تقوم بين يديِ الله بالليل وليس الحل أن تنام، لا أن تتزمل وتنام، هذا الضعف يزول بالوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى، الدعوة لا يناسبها حالة الرفاهية، ولا يناسبها حالة الكسل، ولا يناسبها حالة الاسترخاء، لقد تراكمت الذنوب على قلوب الناس فأنت لا تتدثر، أيضًا حالة التراكم، فلا بد أن تقوم وتترك هذه الطبقات التي لا تصلح لحالة الداعية إلى الله سبحانه وتعالى، فهنا يوجد ملازمة وملابسة بين قضية التزمل وقيام الليل؛ لأن التزمل كما قلنا الشخص الذي يضعُف ويحمل أعباءً كثيرةً فينام، أنت تكون مهمومًا، هذه الحالة الحل لها قيام الليل مع أن قيام الليل متعب أصلًا، فأنت تتعجب أنا متعب، حل التعب الذي عندي أن أتعب؟! لذلك بعض أهل العلم قال: {أشد وطئًا}[المزمل٦] قال إن صلاة الليل أصعب من صلاة النهار وهذا أمر فعلًا مُشاهد، قيام الليل ليس سهلًا، إلا لمن وجد لذته، عالجت قيام الليل سنة أو عشرين سنة وإن كنت أميل لرواية سنة لأن عشرين سنة هذه أستمتع به في القبر أم ماذا!

الشاهد أن مسألة التزمل فيها حالة الضعف، لا بد أن تترك هذا الضعف وحل هذه الهموم وهذه الأحمال الحل لها أن تقوم بالليل، يروى أصلًا أن من سبب نوم النبي -صلى الله عليه وسلم- الهم الذي أصابه لما علم أن قريشًا اجتمعت، وقالت ماذا سنقول في محمد، فقال بعضهم كاهن، وقال بعضهم ساحر، وقال بعضهم مجنون، فبلغ ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- فنام وتزمل مهمومًا، وإن كانت الرواية فيها ضعف، لكن الشاهد يُستأنس بها أنه نام مهمومًا، فقال (زملوني) فتزمل ونام.

أنت أحيانًا تسمع أخبار المسلمين تضعف وتنام مهمومًا، لا تقدر أن تقوم، أي ليس فقط تعب من أمور الدنيا، تتكلم حتى عن العامل لدين الله، أحيانًا من كثرة عمله لنصرة الدين، والأخبار التي يسمعها ينام مهمومًا متعبًا ولا يقدر أن يقوم الليل؛ لذلك ربنا في آخر السورة سوَّى بين الذي يعمل في الدنيا وبين المجاهد، الاثنان يحتاجان لقيام الليل {وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}[المزمل ٢٠] الاثنان محتاجان للصلاة ولو ما تيسر من قيام الليل {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} أي من القرآن في قيام الليل، فهذه الحالة لا يناسبها أبدًا أن تنام، قيام الليل هذا هو الذي سيحل التعب الأصلي.

التدثر، حالة الرفاهية والاسترخاء لا تناسب الداعية، حالة الجلوس، لذلك بعضهم قال-لا أذكر من كتاب اللغة- الذي قال إن المتدثر هذا هو الشخص البطيء الذي يتحرك بصعوبة، شخص حركته ثقيلة، هذه الحالة لا تناسب الدعوة، الدعوة تريد شخصًا خفيفًا يتحرك، يسمع عن مكان يذهب يدعو إلى الله، ينتقل من مكان لمكان، حالة الداعية لا تناسب حالة المتدثر الذي جمع هذه الطبقات الكثيرة فأثقلته {اثاقلتم إلى الأرض}[التوبة ٣٨] فقالوا التدثر فيه معنى الثقل والتزمل فيه معنى الضعف، قد تكون الفروق دقيقة وهذا من إعجاز القرآن.

{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا(٤)ا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا(٥)}، {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ}، جاءت مطلقة وبعد ذلك {إلا قليلًا نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ} لم يقل أو زد عليه قليلًا، يعني دائمًا عندما تأتي تنقص من القيام تنقص قليلًا، لكن عندما تزد تُركت مفتوحة، {أو زد عليه} بعضهم قال وهنا يوجد خلاف في اللغة لن أذكره، قال إن الخلاصة أن المطلوب من النبي -صلى الله عليه وسلم- إما أن يقوم نصف الليل أو ثلثا الليل أو ثلث الليل، أي أعلى من النصف يصل للثلثين، أقل من النصف يصل للثلث، وقالوا هذا مفهوم من آخر آية {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ(٢٠)} فهؤلاء المقصود بهم هنا أعلى من النصف يكون ثلثين الليل أو نصف الليل أو ثلث الليل، تخيل المطالب بهذا الشأن النبي -صلى الله عليه وسلم- في أول الدعوة والصحابة، وكثير من المفسرين قالوا إن ذلك ظل سنة، بعضهم قال ظل عشر سنين وإن الآية الناسخة لهذا الأمر {إن ربك يعلم} قيل نزلت بعدها بسنة وقيل نزلت بعدها بعشر سنين وهذا ترجيح ابن عاشور، عشر سنين تربية على قيام الليل، عشر سنين تدريب على قيام الليل، أو سنة وليست على قيام الليل فقط، على قيام الليل أقل شيء ثلث

الليل، أنت متخيل؟ هذه هي البداية الصحيحة، الباحثون عن تربية النفس هذه هي البداية الصحيحة، على الأقل لا بد من فترة زمنية تربية على مجاهدة النفس لقيام الليل، تربية على تلقي الحقائق القرآنية، تربية على الذاتية، على العبادة الذاتية، تربية على مجاهدة النوم، تربية على اليقظة، تربية على قوة العزيمة، على ترك الفراش، تربية، هذه هي التربية التي اختارها الله للصحابة، الله -عز وجل- لما اصطفى جيلًا يحمل هذا الدين، يكون بصحبة النبي -صلى الله عليه وسلم- اصطفى الصحابة ثم اصطفى لهم هذه العبادة ليتربوا عليه، لم يقل لهم صوموا الأول عشر سنين، لا، كانت البداية قيام الليل سنة أو عشر سنين، تخيل! هذه هي البداية، الذي لا يوجد في بدايته ولا في حياته قيام الليل، هناك نقص هام في حياته، لديه شيء ناقص.

نحن كنا ذكرنا أن كل عبادة تنقص من الإنسان ينقص أمامها شيء في القلب، من لم يغزُ أو تحدثه نفسه بالغزو مات على شعبةٍ من شعب النفاق، كل عبادة تنقص ينقص أمامها شيء من قلب الإنسان، شعب تنقص وشعب من النفاق تظهر، فكذلك ترك قيام الليل يخسر الإنسان جزءًا هامًا من طريقه في السير إلى الله سبحانه وتعالى.

{يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ} هذا القيام يكون بهدوء، القضية ليست قضية (كمّ) هنا الآن {ورتل القرآن ترتيلا} الرتل الأشياء المنفصلة عن بعضها البعض، يكون هناك فواصل، تأخذ نفسك في الآيات تعطي كل حرف حقه، لتتأمل، تتدبر، تقرأ على مكث {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ}[الإسراء ١٠٦] أصلًا أول سنة ما الذي نزل من القرآن حتى يظل نصف الليل يقرأ قرآنًا! ماذا سيقرأ؟ ما الذي نزل! صفحة؟! صفحتين؟! ثلاثة؟! تخيل نصف الليل! سنختار الحل الوسط لا ثلثين ولا ثلث، نصف الليل يقرأ ثلاث صفحات مثلًا! تخيل التكرار يقرأ ثم يعيد ثم يقرأ، هذا الذي يريد أن يُعايش هذه المعاني، يتلقى هذه الحقائق التي يتلقاها لأول مرة.

- قولا ثقيلا:

{ورتل القرآن ترتيلًا(٤)} لماذا هذا الإعداد الرهيب؟ لماذا هذه التربية؟ لماذا اصطفى الله -عز وجل- هذه العبادة تحديدًا؟ {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا(٥)} والتأكيد {سنلقي} الإلقاء لا بد أن أحدًا يتلقى {فتلقى ءادم من ربه كلمات}[البقرة ٣٧] كان هناك استعداد، التلقي فيه معنى الاستعداد، {وإنك لتلقى القرآن}[النمل ٦] ف {إنا سنلقي عليك} لا بد أن تقابل هذا الإلقاء بالتلقي، والتلقي

يحتاج إلى استعداد، { إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا(٦)} المهمة صعبة، المطلوب منك صعب، ما سيأتي من القرآن بعد ذلك فيه مطالب ثقيلة، سنتكلم الآن ما معنى قولًا ثقيلًا، {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} إذًا هذه الخلوة التي بالليل مهمة لكل من أراد التغيير في نفسه أو في الناس، هذه الخلوة التي يتلقى فيها الإنسان القرآن، يتلقى فيها الحقائق المجردة بعيدة عن الزخرفة، كثير من الناس لا تتحمل أن تتلقى الحقائق، يعني هو يريدك أن تزخرفها له وتأتي بمقدمات، لكن لو قلت له الحقيقة كما هي... النفس يصعب عليها أن تتلقى الحقائق، لكن عندما يذهب إلى القرآن والقرآن يخاطب أيضًا المشاعر ويخاطب مشاعر الوجل والخوف والإشفاق والخشية والطمع، يخاطب كل هذه المشاعر، لكن يعطيه الحقيقة أنه لا إله إلا الله، يعطيه حقائق مجردة، أنه عبد لله، أنه لا بد أن يعمل ليدخل الجنة، أن هناك صراعًا بين الحق والباطل، يعطيه الحقائق، ضغط المجتمع عليك وزخارف الدنيا لا تستطيع أن تستمع إلى هذه الحقائق، أي لو أن أحد كلمك عن حقائق قرآنية موجودة، مثلًا أنك إن تنفق شيء يخلفه الله عليك، أو أنك لابد أن تعمل لنصرة هذا الدين، أو لا بد أن تغير من حياتك أو حقيقة التوحيد، {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله}[البقرة ٢٥٦] أن تتلقى هذه الحقائق في وسط صخب كلام الناس أنت لا تستطيع أن تسمع، تكون مشغولا بكلام الناس، وتظل تتلقى كلامهم، إذًا كيف سيُطبق هذا الحديث في الواقع... هذا صعب جدًا! {أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا}[البقرة ٢٥٩] تقول مستحيل أن تستفيق هذه الأمة، تصيبك حالة من اليأس... لأنك تتلقى الحقائق في جو من الزخارف والإحباط وضغط المجتمع، أنت تحتاج إلى خُلوة، إلى بُعد عن هذه الضغوط، هذه أفضل حالة لتلقي الوحي. عندما أراد الله عز وجل أن ينزل الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قَدّر له العزلة، أن يختلي، أيضًا سيدنا موسى تكلمنا في سورة الأعراف أنه ابتعد عن قومه ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر... أربعين ليلة ليتلقى الوحي.

هذا ما يحدث في رمضان في الاعتكاف أن تبتعد عن الناس حتى تعيد العلاقة بالقرآن، هذا ما يحدث يوميًا أو ليليًا في قيام الليل، البعد عن الناس وضغوط وآراء الناس واقتراحاتهم ومشاكلهم والواقع، تبعد عن كل هذا ثم تسافر إلى عالمٍ آخر، النفس المتْعَبة، النفس المزَملة التي تَزَمّلت أي تحملت أعباء... طوال اليوم يتحمل أعباء، مشاكل وضغوطات الواقع وأهل الباطل معهم {ذرني والمكذبين أولي النعمة(١١)} معهم النعيم ومعهم الدنيا ومعهم السلاح وأنت مستضعف وقلة قليلة ولا يوجد كوادر ولا يوجد من يحمل هَمَّ هذا الدين... مع هذه الأحمال وهذه الأعباء أنت لا تستطيع أن تكمل السير هكذا، لا بد

أن تسافر إلى مكان لتستريح. يأتي قيام الليل ليأخذك إلى هذا العالم ليريك الحقائق، ليرتفع بك فوق حاجز الزمان والمكان، ليحدثك عن لحظة بداية الخلق، ليحدثك عن لحظة الخلود في الجنة أو النار، ليحدثك عن قدرة الإله المطلقة التي أهلكت فلان ودمرت فلان وأغرقت ودمرت، وأن الله -عز وجل- قادر على كل شيء. تذهب إلى هذا العالم لتشاهد الحقائق بعين قلبك ليحدثك القرآن بصيغة الرؤية {ألم تر كيف فعل ربك بعاد}[الفجر ٦] على ماذا اليأس إذًا؟ {ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل}[الفيل ١] علام اليأس إذًا؟! {وترى الملائكة حافين من حول العرش}[الزمر ٧٥]، {وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد}[ابراهيم ٤٩] تذهب إلى هذا العالم لترى المجرمين بعين قلبك مقرنين في الأصفاد فترجع إلى الدنيا لتنازعهم وأنت موقن أنهم سيذهبون إلى هذه الأصفاد، أنت موقن بالعاقبة ترجع إلى الدنيا مرة أخرى وكأنك خُلقت خلقًا آخر، أتيت بقلب غير الذي ذهبت به بل أتيت بجسد وبعقل غير الذي ذهبت به وهذا أحد معاني {أشد وطئًا} وطئة القرآن على قلبك؛ هذه الوطئة تُحدِث تغيرًا حقيقيًا في الإنسان إن ذهب إلى قيام الليل ذهابًا حقيقيًا، هذا القول الثقيل يحتاج إلى هذه السفرة، يحتاج إلى هذه الرحلة، يحتاج إلى هذا العالم الذي يختلط فيه الماضي بالحاضر بالمستقبل، يختلط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب، تذهب إلى هذا العالم ليليًا بمفردك لترى وتسمع وتتلقى ثم تعود وأنت تسلم من ركعة الوتر، ويُسنُّ لك أن تقول (سبحان الملك القدوس سبحان الملك القدوس سبحان الملك القدوس)[٧] -يمد بها في الثالثة صلى الله عليه وسلم- من كثرة ما رأيت، من عجيب ما رأيت ثم تأتي في النهار تقوم بقوة قلب، أنت رأيت ما لم ير الناس! تحدثهم عن جنة رأيتها بالأمس! تخوفهم من نار فزعت منها بالأمس! تحدثهم عن مصارع الغابرين التي رأيتها بالأمس! تحدثهم عن أشياء أنت موقن بها، هذا القول الثقيل يحتاج إلى قيام الليل {إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا}.

- العلماء قالوا ما معنى "قول ثقيل"؟

_قال بعضهم: ثقيل على النفس البشرية، ثقيل على الكفار والمنافقين، ثقيل حقيقة، كانت الدابة تكاد أن يُكسر ظهرها عندما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجلس عليها وهو ينزل عليه الوحي، كان صلى الله عليه وسلم يتفصد عرقًا في الليلة شديدة البرودة صلى الله عليه وسلم من شدة نزول الوحي، صلى الله عليه وسلم.

[٧] الألباني (١٤٢٠هـ)، قيام رمضان ٣٣ .[صحيح]

_ قالوا: ثقيل في معانيه، لا تزول المعاني، لو استقرت في قلب لا تخرج منه.. ثقيل.

_ قالوا: ليس بالكلام السفساف الخفيف {ولا يستخفنك الذين لا يوقنون}[الروم ٦٠] فالإنسان المستخَف هو الذي لم يستقر في قلبه هذا القول الثقيل. لذلك عكس القول الثقيل {ومن الناس من يشتري لهو الحديث}[لقمان ٦] هناك حديث يلهي الإنسان عن حقيقته، عن غايته، عن واقعه، عن الهدف من وجوده، هذا هو لهو الحديث، لذلك لهو الحديث ليس فقط الغناء، بل هو كل شيء يصرف الإنسان عن الغاية، عن مصيره الأخروي، كل كلام يصرف الإنسان عن هذه الغاية الحقيقية، عن حقيقة العبودية، هذا هو لهو الحديث... هناك ناس تشتري هذا اللهو ليُضل به، لكي يضل الناس عن القول الثقيل. هذا القول الثقيل الذي يستقر كالجبال حتى يقال أن هذا الشخص ثقيل لا يُخدع.. ثقيل. كيف يصبح الإنسان ثقيلًا لا يُستخف؟ بالقرآن... فاصبر... آخر سورة الروم {فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك}[الروم ٦٠]، أيضًا لا يُستفز لأن الفَز هو ولد البقرة الوحشي الذي يتحرك على أي إثارة ينطلق لأي مكان... الاستفزاز جاء في سورة الإسراء والاستخفاف في سورة الروم. فلا يُستفز الإنسان ولا يُستخف. كيف يصبح هكذا؟ بالقول الثقيل {إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا}.

تحتاج حتى تطبق هذا القول، حتى تنشر هذا القول، حتى تعايش هذا القول، تحتاج إلى هذه الرحلة الليلية، تحتاج إلى قيام ليل مدة طويلة من الزمان حتى يصبح القيام جزءًا من جسدك! يشعر الجسد بنقص إذا مرت عليه أيام وليال بدون قيام يشعر بنقص... مثل من يظل فترة لا يشرب يشعر بعطش، فكذلك الروح التي اعتادت قيام الليل تشعر بعطش، وتحتاج إلى تجديد، تحتاج إلى أن تُروى، تحتاج إلى أن تتغذى. يقول أحدهم أنا محتاج أن أصلي! لذلك أعجبتني كلمة قالها ابن فارس قال: "الضعيف هو الزميل. الرجل الضعيف الذى يتحمل أحمالًا قال إذا حَزَبه أمر تلفف بثيابه"، لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حَزَبه أمر صلى.. صلى الله عليه وسلم. فارق بين الاثنين {إنا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا} كيف تتلقى هذا القول الثقيل {إن ناشئة الليل هي أشد وطئًا وأقوم قيلًا} أساليب كلها مؤكدة: إنا سنلقي – إن ناشئة الليل – إن لك في النهار سبحًا طويلًا.

ناشئة الليل: قالوا هي الصلاة التي تنشأ بالليل أو ساعات الليل الأولى من أول ما تنشأ وكأن الإنسان يبادر باستغلال قيام الليل من أول اللحظات. إن ناشئة الليل.. قال بعض أهل العلم؛ كان الإمام القاسمي نقل قول عن السيوطي، السيوطي نقله عن الجاحظ قال: ناشئة الليل هي المعاني التي تنشأ،

المعاني المستنبطة التي تنشأ بالليل. قال بعضهم: هي صلاة الليل. ناشئة الليل؛ سواء الصلاة أو المعاني المستنبطة من القرآن، هذه الناشئة؛ {ناشئة الليل}، {أشد وطئًا وأقوم قيلًا(٦)}، هذه الصلاة صلاة الليل بمعانيها أشد وطئًا. فالعلماء قالوا ما معني أشد وطئًا؟ في قراءة: (أشد وِطَاءً)، وِطَاءً: قالوا معناها المواطئة {ليواطئوا عدة ما حرم الله}[التوبة ٣٧]. فقالوا: قراءة أشد وِطاءً: أي أن الإنسان في قيام الليل بعيدًا عن صخب الحياة والمشاغل والزخارف فيكون اللسان مع السمع مع القلب في حالة مواطئة. القلب خالٍ من الشواغل، وهذا قبل وسائل التواصل الاجتماعي، وقبل التطبيقات التي تدخل عليها لتنظر هل تلقيت رسالة أم لا! كان القلب خاليًا خصوصًا بالليل كان القلب خاليًا من الشواغل.

فناشئة الليل في فراغ القلب يستطيع أن يتلقى القرآن. مشكلة القرآن أنك من الممكن أن تُزاحم القرآن في القلب أنت من تُزاحم {إن في ذلك لذكري لمن كان له قلب او ألقى السمع وهو شهيد}[ق ٣٧]. مجاهد وأظن نقلها عن ابن عباس لأنه تلميذه قال: أي لا تحدث نفسك بغير القرآن. ماذا يعني لا تحدث نفسك بغير القرآن؟ يعني يجب وأنت تسمع القرآن وتقرأ القرآن ألا تكون مشغولًا بشيء آخر، معاني القرآن لا تدخل القلب هكذا، القرآن عزيز إذا وجد القلب مشغولًا يتركه وينصرف، القرآن عزيز... يجب أن يكون قلبك عنده استعداد لتلقي هذه المعاني.

هل فعلتها ليلة ما... ألا يشغلك إلا أن تقوم لتصلي؟ ليلة في الشهر مثلًا أو كل ثلاث أو أربع شهور، تفرغ نفسك من كل الشواغل وتشرب منبهات وتغلق هاتفك وتقول ليس أمامي طول الليل إلا أن أصلي! المشكلة أنك عندما تقوم تتذكر كل ما نسيته... عندما تنوي أن تجلس في المسجد من المغرب للعشاء لقراءة القرآن، عندما تبدأ بـ{بسم الله الرحمن الرحيم} كل الأمور الخطيرة المفزعة الرهيبة تظهر! وأنت داخل المسجد تظن أن كثيرًا من الأشياء المهمة تحدث بالخارج وعندما تخرج لا تجد شيئًا قد حدث! فأنا أريدك أن تزيل عنك الشواغل ليلة واحدة كي تطبق أشد وطاءً.. أي يحدث مواطئة بين القلب واللسان والسمع.. ما تقرأه تفهمه. ليس هناك ما يُشغلك فيُصعب عليك التركيز مع الآيات. فالقرآن يُزاحَم، لا يقدر أن يدخل القلب، أنت تطرده، هذه وِطاءً... الموافقة..

- أشد وطئا

وطئًا قالوا صعوبة الوطأة، النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (اللهم اشدد وطأتك على مضر)[٨]، وطأة هناك ضغطة هذه الوطأة، يطأ شيئًا يدوس عليه، فقالوا وطئًا صعوبةً أشد وطئًا أي صعوبة، صلاة الليل أصعب وتحتاج إلى مجاهدة؛ فلذلك قالوا هي أكثر ثوابًا، وقيل أشد وطئًا... أين الإشكالية قبل أن نذكر الأقوال؟ على ماذا أشد وطئًا؟ هي محذوف أي أشد وطئًا على أي شيء؟ على القلب؟ أم على النفس؟ أم على البدن؟ لو قلنا وطئًا هنا ليس معناها صعوبة، لو قلنا بمعني التأثير الذي يطأ شيئًا، يترك أثرًا، فلو قلنا إن أشد وطئًا: أشد أثرًا لذلك قال: {وأقوم قيلًا} لذلك بعضهم قال أثبت، المعاني تثبت في قيام الليل، أكثر من قراءتها في الصبح، لماذا تثبت؟ لأن الوطأة كانت شديدة، ما معنى العبودية أصلًا؟ نعود ثانيةً من البداية، العبودية؛ الطريق المعبَّد، هو الطريق المذلَّل الطريق المعبد، أريد أن أشرح لكم قيمة قيام الليل في العبادة ككل، الطريق المعبد تعرف الطريق المسَفْلَّت؟ الطريق المذلل فالعبادة أن أوامر الله تسير هكذا تجد سلاسة، يوجد شخص حياته كلها مطبات وحفر؛ ليس مُعبَّدًا، فهو رافض لأوامر الله هذه ولديه مشكلة هنا، ولا يريد أن ينفذ تلك، ومتردد في ذاك، نحن نريد أن نطأ هذا الطريق، هذه النفس نريد أن نُعبِدها لربنا، لتجد النفس سلاسة وهي تطبق أوامر ربها.

أكثر شيء يطأ هذه النفس هو قيام الليل {أَشَدُّ وَطْئًا} يضغط، يؤثر على القلب، يترك أثرًا حقيقيًا في القلب، أثر فعلي، أي الذي يقوم الليل بحق يستيقظ في الصباح يشعر بأثر، يشعر كما قلنا النبي –صلى الله عليه وسلم– قال إنه يستيقظ طيب النفس، نشيط النفس عكس الآخر خبيث النفس كسلانًا، إذا كان خبيث النفس وصف معنوي، فكسلان وصف حسي، فأيضًا النشيط وطيب النفس فيها وصف معنوي، لكن فيها وصف حسي يتغير بالفعل، يصبح أكثر سلاسةً لقبول الشرع بقيام الليل، الذي يقوم بحق يتلقى القيام بحق يصبح أكثر إقبالًا على الدعوة، على البذل. كثير من المشاكل ممكن أن تحل بقيام الليل بحق.

{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا} قيل إن اللسان يكون فيها متفرغًا للقراءة الصحيحة، فينطق نطقًا صحيحًا أو أن الإنسان يخرج من قيام الليل يتكلم بمراد الله {أَقْوَمُ قِيلًا} ناتجها أو المعاني المستنبطة تكون أكثر دقةً بالليل، لو قلنا {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ} القول الذي ذكره الإمام القاسمي {أقوم قيلًا}

[٨] البخاري (٢٥٦هـ)، صحيح البخاري ٤٥٦٠. [صحيح]

الإنسان يُوفَق لفهم القرآن أكثر بالليل؛ لأنه وقت بعيد عن الشواغل وهو وقت تنزل الرب -سبحانه وتعالى-.

أحبتي، الليل له أسرار، الليل حدث فيه المعراج، فالصلاة معراج، وفُرضت الصلاة في المعراج، في الليل، فقيام الليل هذا سر، المعراج حدث فيه طي للمكان، النبي -صلى الله عليه وسلم- في لحظة سافر من مكة للقدس، ثم عُرِج به إلى السماء، طُويت الأزمنة وطُويت الأمكنة، لذلك في حديث أبي داوود النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (عليكم بالدلجة)[٩] أي الذي يريد أن يسافر، يسافر بالليل، فبالليل تُطوى الأرض، تُطوى الأرض بالليل، العلماء تكلموا في الحديث قالوا هل الطي هذا طي حقيقي؟ يعني فعلًا الذي يسافر بالليل الله -عز وجل- يطوي له الأرض فعلًا؟ خصوصًا الذي يحافظ على الأذكار، وهناك أذكار للسفر بالليل، هل فعلًا تطوى له الأرض؟ بعض العلماء قال أن ذلك طي فعلًا حقيقي، وبعضهم قال مجازي. الشيخ الشنقيطي كان له تعليق على هذا الحديث وقال وما المانع؟ بعضهم قال مجازي، بأي معنى مجازي، قال أن في السابق كانت الدابة تكون أكثر راحة بالليل فتتحرك أسرع، فنفس الوقت الذين يسافرون بالليل ويسافرون بالنهار يفاجأ أن بالليل قطع مسافة أكثر، فقيل هنا أن الوقت يمر سريعًا، دون تعب، ودون أن يشعر بالليل، فقالوا هنا معناه مجازي، تطوى الأرض، وقيل لا تطوى حقيقةً، فلو أخذنا فكرة أن الأزمنة تطوى، -ركزوا معي في هذه الفكرة-، الأزمنة تطوى بالليل، كما حدث في المعراج والمسافات تطوى بالليل، انظر شاهد ثانٍ، {ليلة القدر خير من ألف شهر}[القدر ٣]، يعني كأنه طُوي لك الزمان وعبدتَ وكأنك عبدتَ عبادة أكثر من ألف شهر، هناك أيضًا أماكن تطوى فيها الأزمنة، ما معنى تطوى فيها الأزمنة؟ يعني كأنك جلست تعبد في هذه الأزمنة كلها، كما عندما تصلي -ربنا يرزقنا وإياكم- تصلي في الحرم، الصلاة بمائة ألف صلاة، انظر كأنك جلست كم من الزمن تصلي! انظر مقدار الأزمنة! فكذلك الذي يوفق لليلة القدر، يُوفق في أن يطوى له الزمان، والذي يُوفق في الصلاة في الحرم تطوى له الأزمنة، كذلك قيام الليل من قيمته الأساسية بالنسبة لك، أنه يطوي لك الأزمنة، أنت تصعد في قيام الليل وتعلو في إيمانك، وفي فهمك للحقائق، وفهمك للدين، وتسبق غيرك بأزمنة كثيرة في قيام الليل، تُوفَق لفهم الدين ولأخذ قرارات، غيرك يظل أزمنة طويلة ليفهم في الدين.

[٩] أبو داود(٢٧٥هـ)، سنن أب داود ٢٥٧١. سكت عنه [وقد قال في رسالته لأهل مكة كل ما سكت عنه فهو صالح] .أخرجه أبو داود(٢٥٧١) واللفظ له ، وأبو يعلى(٣٦١٨) مطولا.

عندما تقارن بين الذي يقوم الليل بحق، والذي لا يقوم الليل، فارق أزمنة بينهم حتى لو نفس العمر، هذا سبق بقيام الليل، الذي يحافظ على قيام الليل قيامًا حقيقيًا، يطوى له الزمان ويطوى له في العمر، يفهم، يفقه في الدين؛ لأنه يتلقى هذه الحقائق الربانية التي كُسِرت فيها حواجز الزمان والمكان.

{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا}. اترك النهار سواءً لشغل الدنيا أو للشغل الحركي في الدين، السبح قيل: هو الدعوة بالنسبة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، أو بالنسبة لنا العمل في الدنيا. السبح: التقلب، السبح من معانيه التقلب، أنت طول النهار تتقلب، تريد لحظة استقرار لتتلقى القرآن، هذا يكون في قيام الليل، فالنهار فيه تقلب في المعاش، أو في الحركة، لكن بالليل أنت تحتاج إلى لحظات استقرار، هذه تكون بالليل لكن بالنهار هناك سبح، وإن كان بعض أهل العلم قال: أي تقضي ما فاتك من قيام الليل بالنهار، {إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا(٧)} أي إن لك متسعًا طويلًا لمن فاته قيام الليل يقضيه بالنهار، وهكذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يفعل، إذا فاته ورده من قيام الليل يقضيه بالنهار.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد -صلى الله عليه وسلم-، يقول -ربنا سبحانه وتعالى-: {إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا(٧)} يعني الإنسان لا يصح أن يقول لا يوجد وقت لقيام الليل، حاول، هناك أعمال اجعلها بالنهار، عندك متسع، نظم وقتك، {سبحًا طويلًا} تقلباتك ومعاشك؛ اجعله بالنهار، افترض أنا عندي شغل بالليل؟ {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ} تأتي الآية في آخر السورة ترد على {آخرون} هناك مرضى، أحدنا عندما كان يقرأ الآية قبل أن يعرف تكملتها {عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ(٢٠)} أنت متوقع أن التكملة: فهؤلاء معذورون ليس واجبًا أن يصلوا قيام الليل، لا! {فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ} وما تدري هذه النفس ما تفعل سورة الإخلاص فيها في قيام الليل! فأحيانًا هناك آية -تظل تصلي تصلي قيام الليل- وأحيانًا آية يفتح الله عليك بهذه الآية، وتتغير بهذه الآية، فأنت لا تقل هل سأقوم أصلي بنصف صفحة فقط! ليست مشكلة، فالفكرة أن تنظم وقتك، لا بد أن تُوجِد وقتًا لقيام الليل، لاسيما كما قلت لكم أن الله عز وجل اصطفى هذه العبادة لتربية الصحابة، اصطفاهم لتغيير العالم، وأن يكونوا صحابة النبي -صلى الله عليه وسلم- فاصطفى لهم لتربيتهم ولإعدادهم ولتهيئتهم لهذه الوظيفة، اصطفى لهم قيام الليل وكان واجبًا عليهم، كان فرضًا عليهم، ثم نسخ على خلاف ما الذي نُسخ هل ختام السورة؟ أو بعد سنة؟ أو بعد ستة عشر شهرًا؟ أو بعد عشر سنين؟

أيًا كان، فترة زمنية معينة، هو ملزم بقيام الليل، حتى تورمت أقدامه.. استجابة الصحابة، فكانت تتورم الأقدام، بعضهم قال ذلك بسبب أنه عندما قال لهم الله إما ثلثين أو نصف أو ثلث فكان ربما الصحابي يخاف أن لا يعرف كيف يحسب، يريد مثلًا أن يقوم نصف الليل أو يريد أن يقوم ثلثين الليل فيخاف أن يقوم ثلثين إلا عشر دقائق، ثلثين إلا قليلًا، يريد أن يفعلها بدقة، فكان يقوم الليل كله ليخرج من الخلاف، فنزل قول الله -عز وجل-: {عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ} لن تستطيعوا أن تحسبوها بدقة {فَتَابَ عَلَيْكُمْ}، فتخيل كان بعضهم لكي ليخرج من الخلاف يأتي بأعلى شيء! يقول سأقوم معظم الليل بدل من أن يحسب كم ثلثين الليل، لذلك نزلت الآية أن الله -عز وجل- هو الذي يُقَّدِر الليل والنهار، والذي يعلم المقادير بالدقة التامة هو ربنا سبحانه وتعالى، وهم لم يكونوا يستطيعوا ضبطها {عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ}، الشاهد أن هذا الوقت وقت مهيب وفيه تنزله سبحانه وتعالى، في هذا الوقت وقت نوم الناس، وقت تعب الناس، وقت انشغال الناس في هذا الوقت، كأن هناك إشارة أنه ليس لك إلا الله في هذا الوقت، أن تقوم بين يديه فتنادي في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك، تقوم في هذه الظلمات، أنت تقف بين يدي ربك سبحانه وتعالى، لهذا التنزل في هذه الساعة أيضًا له دلالة... هذا وقت القرب، هذا وقت الأنس بينك وبين الملك سبحانه وتعالى.

{إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا} {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ} طيب بما أنني صليت بالليل، هل أنهينا ولا توجد عبادة بالنهار؟ لا، عندك الذكر تستطيع أن تفعله أثناء التقلب. {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا(٨)} يعني من علامات قيام الليل الناجح أن الإنسان يصبح لسانه رطبًا بذكر الله، لأنه عايشَ معاني القرآن طوال الليل، وإن كان مشغولًا ببدنه أو جسده في أعمال الدنيا فلا يفتر لسانه عن الذكر.

- التبتل

{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} هنا بعضهم قال: ليس الغرض ترك العمل الدنيوي لكن {تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} أي بقلبك. لذلك الآية التي بعدها {فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} لا تعتمد إلا عليه؛ وكيف تعتمد على غيره بعد ما رأيت ما رأيت في القرآن، رأيت في القرآن الذي اعتمد على ماله أحيط بثمره، والذي اعتمد على ملكه أغرقه الله، والذين اعتمدوا على قوَّتهم أهلكهم الله بريح، كيف تعتمد على غيره؟! {فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} أصلًا هذه نتيجة تلقائية. لذلك النتيجة التلقائية التي تخرج بها بعدما تقرأ القرآن كاملًا {قل هو الله أحد*الله الصمد}[الإخلاص ١] أَصمُد إليه {لم يلد ولم يولد}[الإخلاص٣] هذه هي النتيجة

التلقائية من قراءة القرآن؛ وبما أن الله أحد إذًا أستعيذ به من كل شرٍّ خارجيّ "سورة الفلق" أو داخليّ "سورة الناس" هذه النتيجة الطبيعية لقراءة القرآن؛ فبالتالي النتيجة الطبيعية من قيام الليل {واذكر اسم ربك} أن تنقطع إليه لا همَّ لك إلا رضاه، لا تسعى إلا في رضاه {وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} توجد هنا جزئية لغوية ممكن أن نشير إليها. {تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا} تبَتَّل فعل أمر، هل هو رباعي أم خماسي أم ثلاثي؟ نعم فعل خماسي، ما هو الفعل الماضي الموافق له؟ تبَتَّلَ: فعل خماسي، مصدر الفعل الخماسي عندما نحوله لمفعول مطلق لغةً "تبتّل إليه تبتُّلًا"... هنا العلماء قالوا لماذا جاءت تبتيلًا؟ التبتيل هو مصدر لأي فعل؟ أيعرف أحدكم؟ فعل رباعي صيغته فَعَّلَ تفعيل، مثل قطَّع تقطيع، كلَّم تكليم، سلَّم تسليم، علَّم تعليم، بتَّل تبتيل، نعم هو فعل مُضعَّف. قيل إن الآية متوقع أن تأتي بإحدى صيغتين: {وبتّل نفسك إليه تبتيلًا} -على فكرة أول من أشار لهذا المعنى أو أول من رأيته أشار إليه هو ابن القيم، وغيره أخذها واستفاض فيها- فالآية كان متوقعًا أن تكون "وبتِّل نفسك إليه تبتيلًا" أو "وتبتَّل إليه تبتُّلًا" لكن لماذا ورد هذا المصدر مع هذا الفعل رغم أنه ليس المصدر الموافق له؟ القرآن معجز، إذًا لماذا ربنا عز وجل لم يقل "وبتل نفسك إليه تبتيلًا" أو "وتبتل إليه تبتلًا"؟ فعل "تبتَّل" الذي بدأت به الآية هو فعل خماسي صيغته تفعَّل وهذا يفيد التدرج والتكلُّف، لذلك ورد مع صيغة التعلم، النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم)[١٠] ما معنى العلم بالتعلم والحلم بالتحلم؟ يعني أنت تجاهد نفسك في هذا الأمر فتفعله ويكون صعبًا عليك جدًا وتجاهد نفسك وبعد ذلك ماذا تصبح؟ يصبح سجيّة.

كلمة {وتبتَّل} هذا التبتل ماذا تفيد؟ فيها صعوبة وتكلف وتدرج... واضح. وماذا عن التبتيل؟ التبتيل يكون في قمة الشيء؛ مثلًا إذا أردت أن تقول عن شخص ما "سأقطعه تقطيعًا"، هذا يدل على الثبات في الفعل والكثرة. ما الفرق بين كَسَر وكَسّر؟ هاتف من هذا؟ إذًا لو أن أحدهم كسَر الهاتف أو كسّر الهاتف ما الفرق؟ كسره عادي ولكن كسّره أي فتته لمئة جزء، فيه كثرة. فقالوا إن التبتيل يدل على الثبات والكثرة، ثبات وكثرة فسبحان الله. طيب ما الذي كان متوقعًا؟ لماذا لم يقل ربنا ((وبتل نفسك إليه تبتلًا))؟ صيغة بتّل تأتي أولًا والتبتل تأتي في الآخر، لماذا صيغة التكلف جاءت أولًا والتبتيل جاءت في الآخر؟ لأن قيام الليل هكذا يبدأ بتكلف وصعوبة وتدرج وينتهي بثبات وبكثرة.. تبتيل.. أي قيام الليل يبدأ -وأيّ عبادة أخرى- يبدأ بتكلف وتدرج وصعوبة ثم يصبح جزءًا من حياتك، هذا التبتيل. لذلك العجيب أن الآية بدأت بتبتل وانتهت بالتبتيل، التبتيل هو الثبات والكثرة والتبتُّل هو الصعوبة

[١٠] أبو نعيم(٤٣٠هـ) حلية الأولياء ١٩٨/٥. [غريب من حديث الثوري عن عبد الملك تفرد به محمد بن الحسن].

والتدرج والتكلف... واضح؟ فكذلك الإنسان إذا أراد أن يتدرب على قيام الليل عندي نصيحة استفدت منها وأريد أن أوصلها إليكم.. "نصيحة كسر الحواجز"؛ ما معنى كسر الحواجز؟ ما المشكلة أن تقوم ليلة واحدة وتصلي بالبقرة وآل عمران؟ لا أقول لك افعلها كل يوم ولكن جرب أن تكسر الحواجز النفسية التي بداخلك. أنت تهاب هذا الأمر، هناك هيبة في نفسك، ستقول لي: أنا أصلي الوتر بـ: {قل هو الله أحد}[الإخلاص ١] و{قل أعوذ برب الفلق}[الفلق ١] و{قل أعوذ برب الناس}[الناس ١].. أنا أعرف ذلك لكن لا مشكلة جرب مرة أن تصلي بجزء عم كله، مرة واحدة فقط، ستقول لي أنا لو فعلت ذلك سأنام لثلاث سنوات بعدها؛ لا مشكلة أريدك أن تكسر الحواجز، تعلم أن تكسر الحاجز مرة واستمر لثلاث ساعات تقرأ القرآن، ستقول لي أنا أصلًا أقصى طاقتي عشر دقائق... لا مشكلة أنا لا أطالبك بهذا كل يوم لكن عوِّد نفسك، درِّب نفسك أن تفعل هذا مرة من المرات، الخير بالعادة، الإنسان يتعود، لذلك أريدك أن تتعود على قيام الليل حتى يصبح عادة عندك، ولا سيما كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أفضل الصلاة طول القنوت)[١١] أي طول القيام، أريدك أن تتعلم أن تقرأ القرآن كثيرا في الصلاة فإذا جاء رمضان ووقفت تصلي تكون قد تعودت أن تسمع القرآن كثيرًا، القلب يتعود والقدم تتعود والإنسان يتعود. عندما تقف لتصلي قيام ليل هناك من بمجرد أن رجله تبعث له إشارة التعب أنا تعبت فورًا حاضر خمس دقائق، وهناك من رجله تعودت تبعث إشارة تورم وتوجعه لكنها تفهم أن هذا الرجل سيهملها، فهو تعود تلقائيًا أنه لا يتابع رجله، هو واقف يصلي يتابع الإمام وغير مركز مع رجله، بينما هناك من يركز مع رجله والبعوض والذباب والسجادة وقد ترك الإمام يقرأ لنفسه فقط. أريدك أن تتعود على نسيان موضوع رجلك تمامًا.. تعلم وقم مرة واحدة بكسر الحواجز، فتَلقى الله عز وجل تقول له: يا رب مرة واحدة أنا فعلت هذا.

مرة كنا معتكفين، وكان هناك شاب مؤخرًا فقط بدأ يدخل المسجد، أحد الإخوة كلمه في هذا المعنى.. واللهِ قام صلى الليل كله بالقرآن كله فعلًا، وكان في بداياته فقط فتتعجب!!! كيف حصل هذا سبحان الله. الإنسان بداخله طاقات لكنه يرفض أن يخرجها، هو الذي يرفض أن يخرج هذه الطاقات، تأمل كيف من الممكن أن تظهر هذه الطاقات في رحلة عند بعض الناس، في امتحانات قد تجد أحدهم يذاكر ١٦ ساعة أو ١٨ ساعة، هناك طاقات كامنة تخرج عندما يوضع الانسان تحت ضغط، فأنا أريد منك أن تكسر هذا الحاجز ولو مرة.

[١١] مسلم(٢٦١هـ) صحيح مسلم ٧٥٦. [صحيح].

نرجع {وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا(٨)}

إذًا التبتل يكون عندما يتدرب الإنسان ويتكلف ويجد صعوبة ويتدرج ثم تبتيلًا، يصل للثبات والكثرة.

هنا عندنا إشكالية الفواصل؛ أي أنك إذا مرت عليك فترة طويلة لم تُصل القيام فيها لشهر مثلًا، فعندما تعود لقيام الليل تجده صعبًا عليك فتبدأ من جديد، فعَوِّد نفسك.

طبعًا قيام الليل نفل، لكن الحسن البصري وابن سيرين قالوا لا هو واجب ولو بقدر حلب شاة، وبعضهم أوجب الوتر، وبعضهم أوجب الوتر على أهل القرآن الحافظين، والراجح إن شاء الله أن الفريضة هي الصلوات الخمس... كما جاء في الحديث قال: هل عليّ بعدها من شيء؟ قال: (لا، إلا أن تَطوع)[١٢].

لكن الشاهد أريد أن أخبركم أنه حتى الذين أوجبوا قالوا: ولو بقدر حلب شاة، وبعضهم قال فاقرءوا ما تيسر؛ بعض السلف قال {فاقرءوا ما تيسر منه} هي مئة آية -أنا أجمع الأقوال التي قيلت- ما تيسر قيل: مئة آية يعني ما تيسر لكي لا تكون من الغافلين، بعضهم قال: لا، عشر آيات، وبعضهم تساهل وقال: نأخذ بأقل عدد آيات أقصر سورة في القرآن، إذًا ٣ آيات قاسها على أقصر سورة في القرآن، وبعضهم قال أيضًا آيتان لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من قرأ آخر آيتين من سورة البقرة في ليلة فقد كفتاه)[١٣] فبعضهم قال: كفتاه أي عن قيام الليل، هما كفاية.. فالشاهد أن يحاول الإنسان أن يكون له عادة، قضية الوتر تصبح شيئًا معتادًا في حياتك ثم يفتح الله عز وجل لك بإذن الله سبحانه وتعالى.

{وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إله إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩)}

هذا المقام مقام التوكل جاء بعد طول مجاهدة، المشكلة أننا نسمع عن المقامات الإيمانية ونتمنى أن تتحقق في قلوبنا بحركات سحرية. مثلًا يقول لك أنا دائمًا عندي مشكلة في قضية الخوف، الخوف من الرزق والخوف من الأمن، عندي مشكلة في التوكل؛ هذه مقامات قلبية قد جاء ذكرها متأخرًا، بمعنى؛ من يريد أن يُحصّل مثلًا حسن الظن بالله، والإقبال على ذكر الله ومعايشة الدار الآخرة، هذه مقامات قلبية لا تأتي إلا بعد طول مجاهدة في العبادة. هذه هي الإشكالية أن تجلس وتسمع عن مقامات إيمانية

[١٢] مسلم (٢٦١هـ) صحيح مسلم ١١ .[صحيح] ..أخرجه البخاري (٢٦٧٨) .
[١٣] العجلوني(١١٦٢هـ)، كشف الخفاء ٥٦٥/٢. [صحيح]

وتعتقد أنها من الممكن أن تتحقق وأنت جالس، لا قم، قم الليل وقم فأنذر حتى تأتي هذه المقامات إلى قلبك.

في الترتيب القرآني {فاتخذه وكيلًا} جاءت متأخرة بعد هذه المعايشة لقيام الليل، فلن تستطيع أن تحقق مقام التوكل إلا بعد طول مجاهدة ولا سيما في قيام الليل.. واضح؟

{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إله إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا(٩)}

هؤلاء المكذبون المعاندون لا تنشغل بهم {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا} [المزمل : ١١]

هذا القول جاء أيضًا بعد طول قيام، الإنسان لا يستطيع ألّا يلتفت قلبيًا إليهم إلا بعد أن يصلي قيام الليل، فأنت بطبيعتك ستتأثر بجهد أهل الباطل وبقوة أهل الباطل وبالأسباب التي مع أهل الباطل، أنت كبشر تتأثر لكن حتى لا تتأثر ويكون عندك يقين في نصرة الله لك، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم مع الصديق في الغار ونظر الصديق إلى أقدام المشركين فقال: "يا رسول الله صلى الله عليه وسلم لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا"[١٤] في رواية في صحيح البخاري قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (اسكت أبا بكر... اسكت أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[١٥] هذه الكلمة خرجت من قلب عامر بالإيمان صلى الله عليه وسلم. ومن أوائل السور سورة اقرأ قال تعالى {كلا لا تطعه واسجد واقترب}[العلق ١٩].. أبو جهل يهدد النبي صلى الله عليه وسلم أنه لو رآه يُمرغ رأسه بين ظهرانينا عند الكعبة لأطأنَّ عنقه، فيقوم صلى الله عليه وسلم ولا يلتفت لوعيده، يقوم ويصلي بل يصلي ويسجد {لا تطعه واسجد} والسجود أكثر موطن في الصلاة الإنسان لا يستطيع أن يدافع عن نفسه لأن جبهته في الأرض وهو في عالم آخر، فيقول: {لا تطعه واسجد واقترب}. حتى تستطيع أن تصل ل {فاتخذه وكيلًا} وأن لا تنشغل بجهد أهل الباطل، وحتى يطبق الإنسان {وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلًا(١١)} يحتاج إلى هذه المقدمة من قيام الليل، فكل الآتي في السورة هو نتيجة طبيعية لتطبيق قيام الليل.

ثم التحذير من عصيان النبي صلى الله عليه وسلم وإلا يفعل بهم كما فعل مع فرعون.

---

[١٤] عن أبي بكر الصديق قلت للنبي صلى الله عليه وسلم: وأنا في الغار لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما. البخاري (٢٥٦هـ)، صحيح البخاري [صحيح]

[١٥] البخاري(٢٥٦هـ)، صحيح البخاري ٣٦٥٣. [صحيح]

ثم التهديد بيوم القيامة {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} [المزمل : ١٧]

تعظيم هذا اليوم، هذا اليوم الذي تشيب فيه الولدان وتذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى.

ثم قال ربنا في ختام هذه الآية قبل الأخيرة {إِنَّ هذه تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا}. وخير سبيل ذُكر في هذه السورة هو قيام الليل، فأفضل سبيل تسلك فيه إلى ربنا سبحانه وتعالى هو قيام الليل. ثم يقول ربنا سبحانه وتعالى هذه الآية.. آية محرجة! عندما يقرأها أحدنا {إن ربك يعلم أنك تقوم} هل أنت تقوم؟ يقرأ هذه الآية {إن ربك..} ويخاطب النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى} يعني لا تقدرون على أن تحصوه {أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار} هو سبحانه وتعالى أعلم بالمقادير. {عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ}.. النبي صلى الله عليه وسلم قال: (استقيموا ولن تحصوا)[١٦] يعني حاول أن تجاهد لكن لا يأتينّك إحباط إذا لم تطبق بالضبط، لأنك في كل الأحوال لن تحصي.. فلابد على الإنسان أن يكون عنده موازنة تربوية يجتهد ثم لا يُحبط، يستعين بالله ولا يحبط {علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن}. قال جماهير المفسرين أي في قيام الليل {فاقرءوا ما تيسر من القرآن} أي في قيام الليل.. يعني ليس شرطًا أن تصلي ثلثي الليل ولا نصفه بل ما تيسر من القرآن.. "علم أن سيكونُ" والنون هنا جاءت مضمومة بالرغم من أن هناك حرف {أن} قبلها، فلم تأت "سيكونَ" لأن هذه النون في {أنْ} تسمى النون المخففة، أي أنّ معنى الآية: علم أنه سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه.

- الخاتمة

الشيء العجيب هنا وأختم به، أن العمل الحركي للدين أحيانًا يستنفذ من طاقة الإنسان الإيمانية.. أعيد مرة أخرى، أحيانًا العمل الحركي للدين؛ كإنسان يشتغل في أعمال خيرية أو في الدعوة إلى الله، هذا العمل الحركي أحيانًا يستنفذ من الطاقة الإيمانية، لأن هذا العمل الحركي يحتاج إلى إيمان، كون الإنسان يقابل الناس ويخالطهم ويصبر على أذاهم، يقابل أذى في الرزق وأذى في الأمن، يختلط بالناس مع حسد

[١٦] عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم:" استقيموا ولن تحصوه، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولن يحافظ على الوضوء الا مؤمن". المنذري (٦٥٦هـ) الترغيب والترهيب ١/١٣٠ .[اسناده صحيح]

وبغضاء وطعن في الظهر، ما دام سائرًا على هذا الطريق هذه المشاكل والعوائق تحتاج إلى زاد إيماني، فيستنزف الطاقة الإيمانية التي تمثل الوقود فيتراجع عن العمل الحركي للدين.. أحيانًا يظن أن هذا العمل الحركي هو جزء من الزاد الإيماني فيأتي عليه الليل وهو مرهق، تقول له قم صلّ قيام، يقول لك أنا طوال النهار كنت أشتغل في الدعوة.. في اليوم التالي: قم صل قيام، يقول: أنا طوال النهار كنت في أعمال خيرية، هيا قم صل قيام، أنا طوال اليوم كنت أعمل أعمالًا حركية كثيرة في الدين كلها كانت في الدين؛ هذا الشخص بعد فترة غالبًا يتوقف لأنه لا يفهم أنه يحتاج أيضًا كالعامل الذي يضرب في الأرض ابتغاء فضل الله عز وجل في دنياه.. الذي يكسب في الدنيا من حلال -وهنا نحد ثناءً عليه- يحتاج إلى أن يصلي قيام الليل، كذلك الذي يعمل لنصرة الدين يحتاج إلى قيام ليل بل يحتاج إلى قيام ليل أكثر حتى لا يضل ولا يزيغ، لأن القضية أن السائر الذي ينصر الدين ويتحرك قد يزيغ، قد يضل، قد يُستخَفّ، قد يُستفزّ، قد يحقق أمنياته الشخصية.. تكلمنا المرة الماضية {إلا إذا تمنى}[الحج ٥٢] هو لديه أمنيات، ممكن أن يفتن بالدنيا والغنائم أو بالشهرة، كل هذا ممكن أن يفتنه في الطريق؛ حتى يحافظ على طريقه وعلى سيره يحتاج إلى قيام الليل.. إذًا حتى الذي يعمل أعمالًا حركية في الدين يحتاج إلى قيام الليل ولو ما تيسر، يحتاج إلى قيام الليل فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة، هذا لا يعني أننا ننسى الفروض {و أقيموا الصلاة وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا}[البقرة ١١٠]

بعد كل هذا المجهود من قيام الليل والجهاد أيضًا يستغفر الإنسان ربه حتى لا يمنن بما قدم {واستغفروا الله إن الله غفور رحيم}.

أسأل الله عز وجل أن يجعلنا من أهل القرآن وأن يجعلنا من أهل قيام الليل وأن يجعلنا من أهل نصرة هذا الدين اللهم استعملنا ولا تستبدلنا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.